الثورة الحسينيّة على ضوء السنن القرآنيّة

الشيخ حسين السبلاني[1]

خلاصة المقالة:

تقارب هذه المقالة الثورة الحسينيّة بوصفها محطّة تاريخيّة مفصليّة في الصراع التاريخيّ بين ثنائيّة الحقّ والباطل في سياق سننيّ حاكم على الاجتماع البشريّ في تاريخه وحاضره ومستقبله، يربط الثورة الحسينيّة بالسنن القرآنيّة.

وبالتأمّل في خطابات الإمام الحسين عليه السلام في سياق واقعة كربلاء، نجد أنّه يؤكّد دائماً على ارتباط حركته بحركة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وكأنّه يريد أن يؤكِّد ثبات مجموعة من القوانين والسنن وحاكميّتها على الاجتماع الإنسانيّ، وأنّ ثورته لنْ تشذّ عنها، فيصيب الأمّة التي تتآمر على سفك دمه؛ ما أصاب الأمم الغابرة.

وعلى الرغم من أهمّيّة السنن التاريخيّة ودورها في ترشيد حركة الإنسان وتوجيهها، إلا أنّنا لم نجد الباحثين قد سلّطوا الضوء كثيراً على الثورة الحسينيّة في السياق السننيّ وانعكاس السنن القرآنيّة عليها، مع ما لهذه الثورة من خصوصيّات مصيريّة في حياة البشريّة؛ بحيث تستلهم منها الدروس والعِبَر لحاضرها ومستقبلها.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ من لبنان.

ولذلك، تأتي هذه المقالة لتقدِّم الثورة الحسينيّة من منظار سننيّ، وتبيّن انعكاس بعض السنن القرآنيّة عليها؛ كسنّة حتميّة آجال الأمم، وسنّة الاستبدال، وسنّة التغيير الاجتماعيّ، وسنّة الاستئصال.

كلمات مفتاحيّة:

القرآن الكريم، الإمام الحسين عليه السلام، الثورة الحسينيّة، السنن التاريخيّة، الإنسان، المجتمع.

مقدّمة:

تُعدّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام إحدى أهمّ أحداث التاريخ الإسلاميّ بشكل خاصّ، والإنسانيّ بشكل عامّ؛ كونها تشكّل انعطافة مهمّة وأساسيّة في حاضر الأمّة ومستقبلها، ومدرسة متكاملة ترفد العالم بأسره بمفاهيم إنسانيّة تحكم بها الفطرة والدين؛ من قبيل: الإباء، والكرامة، والتضحية، والبذل، والفداء...

فلم تأتِ النهضة الحسينيّة بشرعة جديدة أو سنّة مبتدعة، وإنّما بلورت مفاهيم الصراع التاريخيّ بين ثنائيّة الحقّ والباطل الممتدّة منذ عصر النبي آدم عليه السلام، بين هابيل وقابيل، مروراً بالنبي إبراهيم عليه السلام ونمرود، وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله وكفّار قريش، ووصولاً إلى الإمام الحسين عليه السلام ويزيد، ... في سياق سننيّ حاكم على الاجتماع البشريّ في تاريخه وحاضره ومستقبله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[1]. فالتاريخ تحكمه قوانين ثابتة يجب على الإنسان البحث عنها، والتعرّف إليها؛ إذا ما أراد أن يكون مؤثّراً وفاعلاً في الساحة التاريخيّة.

ولو تأمّلنا في خطابات الإمام الحسين عليه السلام في مسيرته من المدينة إلى كربلاء لوجدناها دائماً تربط حركته بحركة الأنبياء السابقين عليهم السلام،

(1) سورة الأحزاب، الآية 62.

في إشارة واضحة إلى ثبات مجموعة من القوانين والسنن وحاكميّتها على الاجتماع الإنسانيّ، وأنّ ثورته لنْ تشذّ عنها، فيصيب الأمّة التي تتآمر على سفك دمه؛ ما أصاب الأمم الغابرة.

ولذا، كانت حركة الإمام الحسين عليه السلام، غير خاضعة في جوهرها لظروف الزمان والمكان، وإنْ كانت قد جرت في إطار زمني ومكاني. فكانت عالميّة من حيث الامتداد الجغرافيّ، وتاريخيّة من حيث الامتداد الزمني، فكربلاء ليست محصورة بتلك البقعة التي جرت عليها المعركة في ذلك اليوم الدامي، كما أنّ يوم عاشوراء لم يعد ذاك التاريخ الحزين، بل أصبحت كربلاء إشارة إلى كلّ أرض يوجد فيها صراع بين الحقّ والباطل، ويوم عاشوراء امتداداً لزمان مقاومة الظلم والجور وتقديم التضحيات الجسام من أجل حفظ الدين والإنسان.

وعلى الرغم من أهمّيّة السنن التاريخيّة ودورها في ترشيد حركة الإنسان وتوجيهها، إلا أنّنا لم نجد الباحثين قد سلّطوا الضوء كثيراً على الثورة الحسينيّة في السياق السننيّ وانعكاس السنن القرآنيّة عليها، مع ما لهذه الثورة من خصوصيّات مصيريّة في حياة البشريّة؛ بحيث تستلهم منها الدروس والعِبَر لحاضرها ومستقبلها.

ولذلك، تأتي هذه المقالة لتقدِّم الثورة الحسينيّة من منظار سننيّ، وتبيّن انعكاس بعض السنن القرآنيّة عليها.

وقبل الدخول في هذا البحث، لا بدّ من الوقوف -بإيجاز- عند معنى السنّة في اللغة والاصطلاح والقرآن الكريم، وبيان نماذج من السنن القرآنيّة؛ تمهيداً لاستكشاف انعكاسها على الثورة الحسينيّة.

1. السنّة في اللغة والاصطلاح:

ورد في لسان العرب أنّ «السُّنَّة: الطريقة، والسَّنن أَيضاً. وفي الحديث: أَلا رجلٌ يَرُدُّ عَنَّا من سَنَنِ هؤلاء، والسُّنَّةُ الطريقة المحمودة المستقيمة، ولذلك قيل: فلان من أَهل السُّنَّة؛ معناه من أَهل الطريقة المستقيمة

المحمودة، وهي مأْخوذة من السَّنَنِ وهو الطريق»[1].

وفي مفردات الراغب: «السنن جمع سنّة، وسنّة الوجه طريقته، وسنّة الله قد تقال لطريق حكمته، وطريق طاعته، فإنّ الغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل، وهو تطهير النفس للوصول إلى ثواب الله تعالى وإلى جواره»[2].

وبهذا يتحصّل أنّ السنّة هي الطريقة المحمودة التي من شأنها أنْ تُوصِل الإنسان إلى جوار رضوان الله؛ إذا ما حذرها وتنبَّه إلى جريانها.

2. السنّة في القرآن الكريم:

استخدم القرآن هذه المفردة بحرفيّتها من دون اشتقاق سبعة عشرة مرّة[3]، في إشارة إلى طرق واتّجاهات عاشتها الأمم السابقة ومرّت بها، فكأنّ الله جعلها قوانين ثابتة في البشر والوجود كلّه من دون أن تتغيّر أو تتبدّل: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[4].

فسنن التاريخ هي النظم التي على أساسها تنهار الأمم وتنهض، وهذه النظم لا بدّ لها من انطباق في كلّ مجتمع؛ لذلك ذكرها الله -تعالى- في القرآن الكريم لهداية الناس وتحذيرهم من السير على خطى الأمم السابق، حتّى لا يصيبهم مثل ما أصاب مَنْ قبلهم.

3. نماذج من السنن القرآنيّة:

لا شك بأنّ دراسة بعض المحطّات التاريخيّة تُعدّ مقدّمة لاستلهام الدروس والعِبَر، ولذلك نجد القرآن الكريم استعرض أحوال السابقين، ولا سيّما الأنبياء عليهم السلام ومجتمعاتهم، وأمر بالتفكّر والتدبّر بما آلت إليه

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، لا ط، قم المقدّسة، نشر أدب حوزه، 1405هـ.ق، ج13، ص226.
(2) الأصفهاني، حسين (الراغب): مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط2، قم المقدّسة، طليعة النور؛ سليمانزاده، 1427هـ.ق، ص429.
(3) عبد الباقي، محمد فؤاد: المعجم المفهرس للقرآن الكريم، ص367.
(4) سورة الأحزاب، الآية 62.

أمورهم، لتعريف الناس أسباب الصلاح والفساد والسنن الحاكمة على حركة المجتمعات. وبهذا تصبح معرفة التاريخ بالشكل الصحيح مصدراً للنهضة والرقي بالإنسان، وعاملاً من عوامل التغيير والإصلاح.

وبنحو من الإيجاز نعرض بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى السنن الحاكمة على الاجتماع الإنسانيّ؛ لما لذلك من مدخلية مهمّة في غرض المقالة؛ وهو بيان انعكاس السنن القرآنيّة على الثورة الحسينيّة.

- حتميّة آجال الأمم:

قال -تعالى-: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾[1]، ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[2].

- حتميّة انتصار الحقّ وظهوره على الباطل:

قال -تعالى-: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]، ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾[4]، ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾[5].

- قانون الاستبدال:

قال -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[6]، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾[7].

(1) سورة الحجر، الآية 4.
(2) سورة يونس، الآية 49.
(3) سورة الأنفال، الآية 7.
(4) سورة الإسراء، الآية81.
(5) سورة الأنبياء، الآية 18.
(6) سورة المائدة، الآية 54.
(7) سورة المعارج، الآيتان 40-41.

- نصرة الله -تعالى- من ينصره:

قال -تعالى-: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. تؤكّد الآيتان الكريمتان سنّة إلهيّة تحدِّد شروط النصر الإلهيّ ومعاييره، إذ من ينصر الله -تعالى- بالقول والعمل والدفاع عن العقيدة والدين سينصره الله حتمًا، وكذا في التأكيد على نصر المؤمنين، فنصرهم حقّ أوجبه على نفسه الكريمة تكرّمًا وتفضّلًا، بل هو وعد قطعيّ منه تعالى بنصر المؤمنين...

والثورة الحسينيّة تعدّ من المصاديق الحقيقيّة والواقعيّة لهذه السنّة؛ لأنها ثورة الحقّ وثورة نصرة دين الله التي قادها وجاهد فيها أخلص المؤمنين في الأرض، وهي لا تخرج عن القاعدة التي بيّنها رسول الله ﷺ بأنّ هذه الأمّة ستتّبع الأمم السابقة في الأمور كلّها، حيث قال ﷺ: «**لتتبعنّ سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع حتّى لو دخل أحدهم في جحر ضبّ لدخلتموه**»[3]، فبهذا تكون الثورة الحسينيّة من الأحداث التي تسير على وفق القانون العامّ، وتنطبق عليها حينئذٍ السنن التاريخيّة المستفادة من القرآن، التي لا تتخلّف ولا تختلف، فهي مطرّدة في كلّ الأمم، ونحن سنتحدّث عن سنّتين يمكن ملاحظتهما في الثورة الحسينيّة.

أولاً: سنّة التغيير الاجتماعيّ:

بيّن الله هذا القانون العام في القرآن الكريم، حيث قال -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[4]، فالإنسان في القرآن الكريم له كيانه الأصيل والمهمّ في صناعة التاريخ والأحداث، وليس دوره هامشيًّا بحيث تصنعه الأحداث. ومن هنا، كانت ساحة التغيير تنطلق منه، فهو

(1) سورة الحج، الآية 40.
(2) سورة الروم، الآية 47.
(3) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1983م، ج23، ص165.
(4) سورة الرعد، الآية 11.

صانعها ورائدها؛ وهو ما تبيّنه الآية القرآنيّة المتقدّمة، بل إنّها تجعل التغيير الاجتماعيّ أساس التغيير الإيجابي، الذي يتجلّى في التسديد الإلهيّ لهم، فليس المطلوب من الإنسان أن يغيّر نفسه -فقط- حتّى يحصل على هذه المنحة الإلهيّة، بل المطلوب منه -أيضاً- تغيير مجتمعه حتّى تحصل هذه الحركة الجماعيّة التي عبّر عنها القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. وهذه السنّة عامّة ومطّردة في كلّ الأزمان، فهي قانون لا يبدّل ولا يغيّر، وعمليّة التغيير هذه فيها جانبان:

- **جانب إلهيّ:** وهو ما تدعو إليه هذه العمليّة التغييريّة من أحكام ومناهج، وما تتبنّاه من تشريعات. ويمثّل هذا الجانب شريعة الله التي نزلت على النبيّ محمّد ﷺ وتحدّى بنزولها عليه كلَّ سنن التاريخ المادّيّة.

- **جانب بشريّ:** حينما تلحظ العمليّة؛ بوصفها عمليّة اجتماعيّة متجسّدة في جماعةٍ من الناس؛ وهم: النبيّ والصفوة، واجهت تيّاراتٍ اجتماعيّةً مختلفةً من حولها[1].

ولذلك عندما أشار القرآن الكريم إلى عمليّة التغيير ركّز على الفرد والأمّة؛ لكونهما محور التغيير والتبدّل.

وفي مقاربة هذه السنّة ومدى انعكاسها على الثورة الحسينيّة، نجد أنّ ثورة الإمام عليه السلام قد ارتكزت على الجانب الثاني في عملها، وعلى الجانب الأوّل في هدفها؛ حيث أرادت أن ترفع الإنسان إلى ما فوق التاريخ المحكوم بالمادّة، فبهذا تكون حركة الإمام الحسين عليه السلام حركة تاريخيّة تجري وفق سننه.

إنّ الإمام الحسين عليه السلام انطلق في صناعة التاريخ من تغيير الإنسان والمجتمع، حيث وصل الحال في تلك الحقبة التاريخيّة إلى أنْ تبدّلت المفاهيم والأولويّات، فيؤمَّر الظالم، ويُضطهد العادل، ويُطاع الفاسق، ويُظلم المؤمن، وقد عبّر الإمام عليه السلام عن ذلك حينما خطب على مشارف نينوى؛ فقال بعدما حمد الله وأثنى عليه: «**... ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل**

(1) انظر: الصدر، محمد باقر: المدرسة القرآنيّة، لا ط، لا م، لا ن، لا ت، ص49.

به، وإلى الباطل لا يُتناهي عنه...»[1].

بل وصل الأمر بهم إلى حدّ أنّهم حتّى لو لم يخرج الإمام عليه السلام، فإنّ الأمر بقتله قد اتُّخذ إلا أنْ يبايع الظالمين! لذلك قال لابن عباس حين أشار إليه بالصلح : «**هيهات هيهات! يا ابن عباس، إنّ القوم لن يدعوني، وإنّهم يطلبونني أينما كنت حتّى أبايعهم كرهاً ، أو يقتلونني**»، وقوله عليه السلام للفرزدق لما قال له، ما أعجلك عن الحجّ؟: «**لو لم أعجل لأُخذت**»[2]، وفي كلام له مع أخيه ابن الحنفية لمّا أراد أنْ يصرفه عن الخروج إلى الكوفة، فقال عليه السلام: «**والله يا أخي، لو كنت في حجر هامة من هوام الأرض لاستخرجوني منه حتّى يقتلوني!**»[3].

ولذلك، كان لا بدّ من ثورة على هذه المفاهيم، فكانت الانطلاقة إلى صناعة الوعي عند الناس، وإعادة تصويب الفكر لديهم، فانطلق الإمام الحسين عليه السلام من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعلها هدفاً لثورته، فقال: «**إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً ولا ظالماً؛ وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي صلى الله عليه وآله، أريد أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر...**»[4]، فهذا الهدف الخالد من شأنه أن يضع الأمور في نصابها، ويعيدها إلى عقالها.

إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمّا كانا الميزان الأساس الذي جعل أمّة المصطفى صلى الله عليه وآله خير الأمم؛ حيث قال الله -تعالى-: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[5]، فبهذه الفريضة تميّزت هذه الأمّة عن بقيّة الأمم، والإمام عليه السلام يعلم بأنّ الالتزام بهذه الفريضة سيؤدّي إلى التغيير الاجتماعيّ المطلوب؛ وبالتالي يتحصّل الشرط للوصول إلى النتيجة، ولذلك قال عليه السلام: «**فبدأ الله بالأمر بالمعروف**

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج44، ص380-381.
(2) ابن كثير الدمشقي، إسماعيل: البداية والنهاية، لا ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا ت، ج8، ص180.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج45، ص99.
(4) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج44، ص329-330.
(5) سورة آل عمران، الآية 110.

والنهي عن المنكر فريضة منه؛ لعلمه بأنّها إذا حييت وأقيمت استقامت الفرائض كلّها؛ هيّنها وصعبها (...) فإذا لم يظهر الإصلاح، ولم يعمل بهذه الفريضة؛ فالنتيجة: قوي الظلمة عليكم، وعملوا في إطفاء نور نبيكم»[1].

ومن هنا، أراد الإمام عليه السلام أن يعيد الأمّة إلى وعيها ونهجها، فلم يكنْ أمامه إلا انتهاج طريق الجهاد؛ ولو ترتّبت عليه التضحيات الجسام، فهذه الدماء ستجعل الأمّة تعي حجم إعراضها عن رسالة السماء، وبها سيكون النصر والفتح. قال الإمام عليه السلام: «**من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلّف عنّي لم يبلغ الفتح**»[2].

ويمكن ملاحظة أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم ما يترتّب على خروجه من مواجهة الظالمين والمفسدين من خلال التأمّل في تعبيره «**لطلب الإصلاح**»؛ فإنّ مفردة الإصلاح تعني أنّ هناك جهة فاسدة لا بدّ من إصلاحها، وهذا يحتّم المواجهة بين جبهتين: جبهة الحقّ، وجبهة الباطل، فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يواجه بالحرب والبغض قبل دعوته على الرغم من أنّه كان صالحاً، ولكنّه لمّا أراد أن يكون مصلحاً أذوه كثيراً وحاولوا قتله مراراً، بل إنّ لقمان الحكيم عندما أوصى ابنه بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يعلم ما يتطلّب هذا الفعل من أذى؛ لذلك أمر ابنه بالصبر عليها؛ كما ورد في سورة لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[3].

فالإمام الحسين عليه السلام عندما يطرح في بداية ثورته هذا الهدف هو يعلم بأنّ التغيير الاجتماعيّ وإعادة الوعي لأمّة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم يحتاجان إلى عظيم التضحيات، وكثير الابتلاءات؛ ولهذا كان صابراً محتسباً مقداماً

(1) ابن شعبة الحرّاني، الحسن بن علي، تحف العقول، تصحيح: علي أكبر الغفاري، ط2، قم المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ، 1404هـ.ق، ص237-239.
(2) ابن طاووس، علي بن موسى: اللهوف في قتلى الطفوف، ط1، قم المقدّسة، أنوار الهدى؛ مطبعة مهر، 1417هـ.ق، ص41.
(3) سورة لقمان، الآية 17.

مصمّماً على مواصلة درب الجهاد والتضحية والفداء.

إنّ السنّة الإلهيّة القرآنيّة القائمة على التغيير الاجتماعيّ للوصول إلى النتيجة، هي من قبيل السبب والمسبَّب، والعلّة والمعلول، أو هي علاقة بين الفعل وردّة الفعل، فإذا ما توفّر الشرط تولّدت النتيجة، فالشرط هو التغيير الاجتماعيّ والداخليّ النفسيّ في المجتمع، حتّى يصبح مجتمعاً مؤمناً ، فإذا أصبح كذلك؛ سدّدهم الله ورعاهم.

ولكنْ لمَّا تخلّف الشرط في ثورة الإمام الحسين عليه السلام لم تحصل النتيجة المترتّبة عليه، فتخاذلت الأمّة عن نصرة الإمام عليه السلام، فلم يحصل هذا التغيير بشكله المباشر والواضح، وبرزت آثاره لاحقاً عندما نهضت الأمّة من جديد في وجه الظالمين والمفسدين، فسلّط الله على الناس كبراءهم وفسّاقهم، فعانوا الظلم، والهوان، والاضطهاد، والاستكانة، وفي هذا قال عليه السلام في جواب رجل يكنّى أبا هرّة الأزدي التقاه في الثعلبيّة، لمّا سأله عن سبب خروجه : «**ويحك يا أبا هرّة! إنّ بني أمية أخذوا مالي فصبرت، وشتموا عرضي فصبرت، وطلبوا دمي فهربت، وأيم الله لتقتلني الفئة الباغية، وليلبسنّهم الله ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وليسلّطن عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ من قوم سبأ؛ إذ ملكتهم امرأة، فحكمت في أموالهم ودمائهم**»[1].

وفي كلام آخر له عليه السلام يقول: «**والله لا يدعونني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا؛ سلّط الله عليهم من يذلّهم حتّى يكونوا أذلّ فرق الأمم**»[2].

ويمكن أن نعبّر عن سبب عدم حصول التغيير بنحو آخر؛ وهو عدم الوفاء بالعهد؛ وذلك انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ

(1) الكوفي، أحمد بن أعثم: الفتوح، ط1، بيروت، دار الأضواء، 1991م، ج5، ص71.
(2) المفيد، محمد بن محمد بن النعمان: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسّسة آل البيت، ط2، بيروت، دار المفيد، 1993م، ج2، ص76.

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1]، فالأمّة يجب أنْ تقوم بواجب التضحية والإخلاص، والطاعة للولي، وعدم التعدِّي واللجوء إلى الظالمين والمسرفين، وإذا ما وفت هذه الأمّة بعهدها؛ يوفي الله بعهده، فيجعلها ظاهرة وحاكمة.

وهذا ما لاحظناه في عهد النبي ﷺ إذ أقدمت هذه الأمّة على طاعة الرسول ﷺ والتضحية بين يديه، فلمّا رأى الله صدق المجاهدين وإخلاصهم، وتغيّر أحوالهم؛ أنزل عليهم نصره، وأعزّهم، وجعلهم خلائف الأرض، بحيث استطاعوا بفترة وجيزة أن يقيموا دولة لهم في تلك المنطقة التي استمرّت ولفترة طويلة عابدة للأصنام، ومحاربة لدين التوحيد!

ونجد انطباق هذه السنّة نفسها على ما جرى مع الإمام الحسين عليه السلام، فلمّا تخاذلت الأمّة عن الوفاء بالعهد، والعمل بواجبها؛ كانت النتيجة خذلان الله لها، وإزاحتها عن مقام الصدارة.

فالأمّة كلّها تتحمّل مسوؤلية العودة إلى مكانها التي مُيّزت به؛ وذلك من خلال تحقيق الشرط وتغيير الأنفس، فلا تعيش ذلّ الظلم، وهوان الاضطهاد؛ كما تعيشه منذ ذلك اليوم التي تخلّت فيه عن الوفاء بعهدها في طاعة الإمام عليه السلام، فكانت أنْ جرت عليها سنّة عدم التغيير الاجتماعيّ؛ لعدم الوفاء بالعهد؛ كما جرت في أمم سالفة وغابرة.

ثانياً: سنّة الاستئصال:

إنّ لله -تعالى- أساليب متعدّدة يستخدمها من أجل هداية الناس، وبتعدّد هذه الأساليب يلقي الحجّة عليهم، فلا يعتذروا أمامه يوم القيامة. وتبدأ هذه الأساليب من إرسال الرسل عليهم السلام إليهم فيعظونهم، ويعلّمونهم وينذرونهم عاقبة سوء أعمالهم، فإذا لم تنفع هذه الأمور معهم؛ كانت خطوة أخرى في

(1) سورة البقرة، الآية 40.

سلسلة الهداية؛ من البلاءات المتعدّدة، والإنذارات المختلفة التي تتدرّج بحسب فظاعة الذنب المرتَكَب؛ بحيث يصل العقاب في النهاية إلى مرحلة استئصال الأمّة واقتلاعها واستبدالها بأمّة أخرى؛ لتكوين المجتمع الصالح.

فالله -تعالى- لا يقتلع هذه الأمّة من الوجود؛ إذا ما كان فيها إمكانيّة الهداية والإيمان، ويمكن استشراف هذه المسألة من قصّة النبي نوح عليه السلام، حيث لم يدعُ على قومه إلا لمّا أيقن بأنْ لا إمكانيّة لهدايته على الإطلاق، فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[1]، فهذه الأمّة إذا ما وصل الحال بها إلى هذا المستوى، على نحو لا ترتجى هدايتها أبداً، فلا ينفع معها عندها إلا الاستئصال.

وقد أشار القرآن الكريم إلى عذاب الاستئصال عندما حكى قصص الأنبياء السابقين، ويمكن ذكر بعض الآيات الدالّة على هذا الأمر من سورة الفرقان؛ حيث قال الله -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ۝٣٥ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ۝٣٦ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾[2]. ففي هذه الآيات من هذه السورة المباركة يبيّن الله -تعالى- ما جرى على الأمم السابقة من عذاب أفناهم عن آخرهم، ولو تأمّلنا في الآيات لوجدنا أنّ السبب في هلاكهم، وإنزال العذاب عليهم، هو تكذيبهم الأنبياء عليهم السلام، وعدم اتّباعهم وتصديقهم، بل السعي في إيذائهم وقتلهم؛ كلّ هذا كان كفيلاً في القضاء عليهم؛ بحيث حلّ بهم عذاب الاستئصال، وأخلف الله -تعالى- الأرض قوماً آخرين.

ولو عدنا إلى ثورة الإمام الحسين عليه السلام نجد أنّ لها ارتباطاً وثيقاً بالسنن

(1) سورة نوح، الآيتان 26-27.
(2) سورة الفرقان، الآيات 35-39.

الحاكمة على دعوة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في محطّات متعدّدة سيأتي ذِكْرها، وكأنّ الإمام كان يشير إلى أنّ ثورته هي إحدى الأحداث التاريخيّة التي تعيش فصولها في ساحة التاريخ، ولذلك سيجري عليها ما جرى على الأقوام السابقة من العذاب والاستئصال، فإذا وصل الأمر بهذه الفئة الباغية والطاغية إلى حدّ قتل الإمام عليه السلام؛ فإنّ الله لن يرضَ بذلك، وسينزل العذاب على الذين ظلموا، ولذلك أكّد الإمام عليه السلام في كلماته هذه الحقيقة؛ حيث بيّن هذا الأمر -أي ارتباط حركته بسنن الأقوام السابقة- في العديد من المناسبات والمحطّات؛ ومنها: ما نقله الإمام زين العابدين عليه السلام عنه عليه السلام؛ حيث قال: «**خرجنا مع الحسين عليه السلام، فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه؛ إلا ذكر يحي بن زكريا وقتْله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحي بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل!**»[1].

وفي جوابه لعبدالله بن عمر لمّا أشار عليه بالصلح مع أهل الضلال، فقال عليه السلام : «**يا أبا عبد الرحمان! أما علمت أنّ من هوان الدنيا على الله: أنّ رأس يحي بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، كانوا يقتلون ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس سبعين نبيّاً، ثمّ يجلسون في أسواقهم يبيعون ويشترون؛ كأن لم يصنعوا شيئاً، فلم يعجّل الله عليهم، بل أمهلهم وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز ذي انتقام، اتقِ الله يا أبا عبد الرحمان، ولا تدعنّ نصرتي**»[2].

وقد أمضى الإمام عليه السلام كلام ابن سعد الشبامي؛ وهو من أصحابه، لمّا خطب بالقوم، فقال لهم: «**يا قوم! إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب، مثل دأب قوم نوح وعاد، وثمود والذين من بعدهم. فقال له الإمام عليه السلام: يا ابن سعد! قد استوجبوا العذاب حين ردّوا عليه ما دعوتهم إليه من الحقّ، ونهضوا**

(1) المفيد، الإرشاد، م.س، ج2، ص132.
(2) الكوفي، الفتوح، م.س، ج5، ص25.

إليك يشتمونك وأصحابك، فكيف بهم الآن وقد قتلوا إخوانك الصالحين»[1].

وعندما ذُبِحَ ابنه عبد الله الرضيع، وفي ذلك الموقف المفجع، وقف الإمام بعد أنْ ملأ كفّيه من دم ابنه، ثمّ قال: «**اللهمّ لا يكون أهون عليك من فصيل ناقة صالح**»[2]، فكما أنّ ذبْح الناقة وفصيلها كان سبباً في انتقام الله من قوم النبي صالح عليه السلام؛ حيث قال في كتابه العزيز: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾[3]؛ كذلك فإنّ ذبح الرضيع وغيره من المجاهدين المؤمنين سيكون سبباً في عذاب القتلة والظالمين.

فقد أكّد الإمام عليه السلام بهذا الكلام تلك السنن التي جرت في الأقوام الغابرة، وأنّ قتل الصالحين هو سبب لنزول العذاب على الكافرين، وعلّة لاستئصال الظالمين، فكيف إذا كان المقتول هو الإمام المفترض الطاعة، وولي أمر الأمّة في شؤونها كافّة؟!

ويمكن أنْ نلاحظ بوضوح هذه السنّة في خطاب له عليه السلام قبل بدء المعركة، حيث عرّفهم عن نفسه، وعن جدّه، وأمّه، وأبيه، فلمّا ألقى الحجّة عليهم، -ولم يزدهم ذلك إلا طغياناً وعتواً-، بيّن لهم أنّه مصيبهم بقتله ما أصاب اليهود والنصارى والمجوس من قَبْل، فقال: «**اشتدّ غضب الله على اليهود؛ حين قالوا: عزير ابن الله، واشتدّ غضب الله على النصارى؛ حين قالوا: المسيح ابن الله، واشتدّ غضب الله على المجوس؛ حين عبدوا النار من دون الله، واشتدّ غضب الله على قوم قتلو نبيّهم، واشتدّ غضب الله على هذه العصابة الذين يريدون قتل ابن بنت نبيّهم**»[4].

وفي المعركة أجاب الإمام عليه السلام القوم لمّا سألوه كيف ينتقم الله منهم، فقال عليه السلام: «**يلقي بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثمّ يصبّ**

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج45، ص23.
(2) م.ن، ص47.
(3) سورة الشمس، الآيتان 13-14.
(4) الكوفي، الفتوح، م.س، ج5، ص101.

عليكم العذاب الأليم»[1]، ثمّ دعا عليه السلام أن يجري عليهم ما جرى على الأقوام السابقين من أنواع مختلفة من العذاب، فقال عليه السلام: «**اللهمّ احبس عنهم قطر السماء، وابعث عليهم سنين كسنيّ يوسف، وسلّط عليهم غلام ثقيف يسقيهم كأساً مصبّرة، ولا يدع فيهم أحداً إلا قتله بقتلة، وضربه بضربة، ينتقم لي ولأوليائي وأهل بيتي وأشياعي منهم، فإنّهم غرّونا وكذّبونا وخذلونا، وأنت ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**»[2].

ويستفاد ممّا تقدّم أنّ الإمام عليه السلام كان يرى ثورته امتداداً لحركة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وحركة تسعى للأخْذ بالإنسان نحو الهداية والكمال، فإذا ما خالفت الفئة الظالمة في هذا وارتكبت الذنوب الكبيرة، وحالت بين الناس وإمامهم؛ فإنّ الله -تعالى- سيُجري عليهم سنّة الاستئصال، ولذلك كان الإمام عليه السلام يركّز على هذا الأمر في خطاباته؛ لعلّهم يرتدعون، فلا يقدمون على ما يخطّطون له.

وبالفعل بعد قتل الإمام الحسين عليه السلام كان العقاب الكبير الذي نزل من السماء على بني أميّة؛ حيث تتالت الثورات المتعدّدة، وانهارت دولة الأمويّين، وقُتل كلّ من شارك في قتْل الإمام عليه السلام، فأزيلت الأمّة الباغية، واقتلعت من جذورها، فلم تبقَ لها باقية، وقد أشار إلى ذلك الفخر الرزاي في تفسير سورة الكوثر: «والقول الثالث: الكوثر أولاده (الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على مَنْ عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت، ثمّ العالم ممتلئ منهم، ولم يبقَ من بني أميّة في الدنيا أحد يعبأ به، ثمّ انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء؛ كالباقر، والصادق، والكاظم، والرضا عليهم السلام، والنفس الزكيّة»[3].

(1) م.ن، ص118.
(2) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج45، ص10 .
(3) الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، تحقيق وتصحيح: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، ط1 (جديدة مصحّحة وملوّنة)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1415هـ.ق/ 1995م،

خاتمة:

لقد ثار الإمام الحسين عليه السلام ضدّ الظلم والظالمين؛ ليعيد الحياة إلى أمّة المسلمين، وليعلن الخلاص من العبوديّة لغير الله -تعالى-، مقتفياً في ذلك خطى جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؛ عندما أعلن الإسلام دين التوحيد في شبه الجزيرة العربيّة، ولينقذ الإنسان من رقّ الجهل والظلم، ويرفعه مقاماً عليّاً، متحمّلاً في ذلك المشاق والمتاعب والمصاعب.

والإمام عليه السلام العالم بسنن التاريخ وقوانينه كان يعلم أنّ عاقبة هذا الأمر هي النصر، وإنْ استلزم التضحيات الجسام، شأنه في ذلك شأن الأنبياء السابقين عليهم السلام، والمؤمنين الصابرين، فالدم لا بدّ أن ينتصر على السيف. ولذلك لم تكنْ ثورة الإمام عليه السلام بعيدة عن قوانين التاريخ، بل هي التي صنعت التاريخ المجيد لهذه الأمّة؛ بعدما ابتعدت كثيراً عن خطّها الإيمانيّ، وأعادها بالتضحيات والجهاد إلى رحاب قوله -تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

مج11، ج32، ص313.

(1) سورة آل عمران، الآية 110.